عالميـــة الأدب العربي

الأستاذ محمـــد وهبي

لئن كنا نفهم الأدب على أنه التعبير الصادق للنفس البشرية ، وتصوير الحياة من جميع وجوهها النفسية والفكرية والاجتماعية بواسطة الألفاظ ، فإننا نستطيع أن نجد بذلك التفسير العميق لخلود الآداب على وجه العموم . فما دامت النفس الإنسانية هي هي في جوهرها على مر الأزمنة والعصور ، فإنها تدأب على تمجيد صورها الفنية الرائعة التي رسمتها ريشة الأدباء والشعراء على اختلاف أجيالهم وأوطانهم . وهي تمجد هذه الصور لأنها تظل تفهمها مهما تقدم بها الزمن .

على أن الخلود ليس الصفة الوحيدة التي تتمتع بها الآداب ؛ فهناك صفة العالمية ، أو قل طابع الشمول الإنساني الذي لم نجده في جميع الآداب ، وإنما امتاز به بعضها فقط .

لقد يخلد أدب في أبناء القوم الذين أنتجوه ، لأنه يحمل بين طياته صورة لحياتهم الخاصة ، وغذاء معيناً لذوقهم المحلي ، ولكنه لا يستطيع أن يمتد إلى ذوق سواهم من البشر ، ولا أن يصل بكامل روحه إلى أفهام غيرهم من سكان المعمورة إذا ترجم لهؤلاء

يعينه على إتمام دراسته لقاء دين يسدده بعـــد أن يتخرج في الجامعة . ورفض الأب أن يستسلم لرأي ابنه الشاب ... ورفض أن يستخذي في إصرار وعناد . واحتدم النقاش بين الأب وابنه فثارت ثائرة الأب فلطم ابنه لطمة طار لها صواب الشاب فما شعر إلا وهو يهوي على خد أبيه بلطمة قاسية ثم يطير إلى عمه يستجديه .

وطفرت من عين الأب المنكود عبرة حرّى تحمل كل معاني الذل والشقاء .

وفي الصباح فزع الناس إلى الدار الوضيعة ... دار ريب العز والثراء ليروا الرجل ملقى في ناحية يتزف دمه آخر قطرة من الترفع ، تنهمر من شريان في يده عزيزته كبرياء لم تتصاغر من ذل الفاقة ، ولا تطامنت أمام ذل اللطمة من ابن عاق ...

كامل محمود حبيب

لأنهم لا يجدون فيه ما يتجاوب مع نفسياتهم ، ولا ما يعبر عن أحوالهم وأفكارهم التي قد يشاركهم فيها جميع البشر . إنه أدب محلي شخصي ، ينطوي على فردية متقلصة ضيقة فقيرة ، تجهل صفة الإنسانية العامة ، الغنية بمعانيها الحية . ولهذا نجد آداباً كثيرة جمدت ضمن البيئات التي نشأت فيها لاحتفاظها بصفة الفردية الضيقة ، ثم اندثرت مع الحضارات التي رافقتها ، حتى أصبحت لا تذكر إلا على سبيل التأريخ لحياة الأمم التي أنتجتها ؛ بينما نرى آداباً خلدت وانتشرت في أكثر اللغات ، وظلت حية ممجدة في كل صقع وكل قطر ، لأنها تتمتع بصفة العالمية الراسخة ...

والأدب العربي من زمرة الآداب العالمية التي لها صفة الشمول الإنساني ... نقول هذا ونؤكده ، ونحن نعلم تمام العلم أن من المستشرقين من أنكروه قطعاً ، وحجتهم خلو هذا الأدب من المسرحيات التمثيلية والملاحم الضخمة ، واقتصاره على وصف الأحوال والبيئات الخاصة لأعلامه . ولا يجد الواحد منا كبير عناء في الرد على مثل هذا الادعاء المنهار الأساس . فالأدب العربي يحتوي على عناصر إنسانية عدة ، تنوب عن الفن المسرحي ، وتكاد تفوقه في الأهمية كما سنرى . وقبل أن ننفذ إلى بحث فنون هذا الأدب ، أو قل عناصره التي تجلى بها ، لنأخذ لغته التي تشكل قاعدته الأولى ، وعصبه الأساسي .

اللغة العربية لغة حية ما في ذلك إشكال ، وهي إلى هذا غريزة مرنة قد برهنت خلال العصور على قدرتها على التسرب إلى مختلف الشعوب ، والتأثير في كثير من اللغات . والأدلة على هذا كثيرة : فمع أن الفاتحين الذين ظهروا في الشرق قبل العرب لم يستطيعوا أن يفرضوا على الأمم المغلوبة لغاتهم ، فقد تمكن العرب من فرض لغتهم عليهم . ولما سارت اللغة العربية عامة في جميع البلاد التي استولوا عليها ، حلت محل ما كان فيها من اللغات : كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية وغيرها . وقد كان لغة العرب مثل ذلك الحظ حتى في بلاد فارس على الرغم من يقظة الفرس ، بل لقد ظلت اللغة العربية في تلك البلاد لغة أهل العلم والأدب ، وظل الفرس يكتبون لغتهم بالحروف العربية ولم تؤلف كتب الكلام والعلوم الأخرى في بلاد فارس بغير لغة العرب ، وإلى اليوم لا يزال أمر اللغة العربية في ذلك الجزء من آسيا كالذي كان للغة اللاتينية في القرون الوسطى بأوربا .

وقد كان للغة العربية فوق هذا أثر عميق فى اللغات اللاتينية ذاتها ، حتى أن المستشرقين « دوزى » و « أنجلمن » وضعا معجماً فى الكلمات الأسبانية والبرتغالية المشتقة من اللغة العربية . وحتى اللغة الفرنسية أيضاً لم تنج من تأثير اللغة العربية التى أعطتها مثلما أعطت الطليان اصطلاحات كثيرة ، وخصوصاً الاصطلاحات البحرية . ويذهب الدكتور « غوستاف لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » إلى القول بأن الأوربيين اقتبسوا من القافية فى الشعر من العرب ، وأن الشعر الأسبانى والشعر البروفنسى مدينان فى ظهورهما لشعراء عرب الأندلس ، ويؤيده فى هذا عدة مستشرقين .

لسنا فى حاجة إلى الاسترسال فى التدليل على خاصة المرونة فى اللغة العربية ، تلك الخاصة التى جعلت منها لغة عالية عظيمة الانتشار ، فكان لها الأثر الأكبر فى نقل الأدب العربى إلى أقطار كثيرة ، وتزويد روحه بعناصر شتى ومواد غزيرة فى بلاد متنوعة ، مما جعله بالتالى أدباً عالياً قريباً إلى نفس الإنسان فى أى مكان . ولا أدل على ما نذهب إليه من كثرة الترجمات الأدبية من اللغة العربية إلى اللغة الأجنبية ، ورواج هذه الترجمات وتعدد طبعاتها ...

وإذا ما نظرنا فى الأدب العربى ، فأول ما يسترعى انتباهنا فى روحه ذلك الاتصال المباشر الدقيق بأعماق النفس الإنسانية على وجه العموم ، بحيث أنه وصفها وحللها وتواجد معها ، ونبض بمعانيها على اختلافها وتنوعها من سمو وضعة ، ومن قوة وضعف . ويبرز أمامنا فى هذا المعنى شعر عمر بن أبى ربيعة الذى عبر أصدق تعبير عن نفسية الإنسان فى غرامه وفى فهمه لعقلية النساء . وإنى لا أنسى داليته المشهورة التى قالها فى محبوبته « هند » ، حيث يصور لنا مشهداً فريداً فى نوعه ، ويعطينا وصفاً طريفاً لأحاديث النساء فيما بينهن ، بحيث يخلص منه إلى إبراز الغيرة التى تخالج نفس المرأة أياً كان لونها أو زمنها ، لنسمع إليه إذ يقول:

زعمها سألت جاراتها ... وتعرت ذات يوم تبترد
أكما ينعتنى تبصرننى ... عمركن الله أم لا يقتصد ؟
فتضاحكن وقد قلن لها : ... حسن فى كل عين من تود
حسداً حملنه من أجلها ... وقديماً كان فى الناس الحسد

ونستطيع أن نتبين أوجه الشبه القوى فى هذه الخاصة بين ابن أبى ربيعة «وراسين» فى الأدب الفرنسى، أو« ألفرد دو موسيه» كذلك ، بل إن ابن أبى ربيعة بلغ من إتقانه تصوير النفس البشرية حداً جعله يستعمل أبسط الألفاظ وأقربها إلى العامية أحياناً لأجل تأدية المعانى الدقيقة .

ويشارك ابن أبى ربيعة فى هذه الميزة أبو نواس ، ذلك الشاعر العالمى النادر المثال الذى لم يدع حالة من أحوال اللهو والمجون إلا وصفها وصفاً صريحاً كشف عن أدق النزعات والنزوات التى تخامر نفس الإنسان ويكبتها أو يحجبها عن المجتمع .

وخاصة ثانية ارتقى بفضلها الشعراء العرب إلى مرتبة الشعراء العالميين ، تلك هى إحساس الطبيعة ، أو قل تعشق الطبيعة ، والتواجد معها ، وتقديس جمالها والافتتان بتصويره . فابن الرومى، ذلك الفنان المتيم بالألوان ، والبحترى يستويان فى هذا الباب فى مرتبة « لامرتين » و « شاتوبريان » و « فيكتور هوجو » . وأما شعراء الأندلس ، فلا تقل عن الشأو الرفيع الذى بلغوه فى هذا التواجد الإنسانى ، الذى يتجلى فى قول ابن خفاجة حين يصف روضة عند الصباح :

والنَّور طرفٌ قد تنبه دامعٌ ... والماء مبتسمٌ يروقُ صقيلُ
فالروض مهتز المعاطف نعمة ... نشوان يعطفه الصبا فيميلُ
ريان فضضه الندى ثم انجلى ... عنه فذهّب صفحتيه أصيل
وارتد ينظر فى نقاب غمامة ... طرفٌ يرنقه النعاس كليل
ساج كما يرنو إلى عواده ... شاك ويلمح العزيز ذليل ...

وبين أعلام الأدب العربى شعراء نستطيع تسميتهم شعراء المبدأ أو شعراء الفكرة إن صح هذا التعبير ، يرتقون إلى درجة العالمية بجدارة صريحة ، بفضل المبادئ أو المذاهب الإنسانية التى اعتمدوها فى إنتاجهم الفكرى . ففلسفة التشاؤم وحرية الفكرة تشكلان المحور الأساسى لشعر أبى العلاء المعرى ؛ وهو يلتقى من ناحية التشاؤم بالفيلسوف الألمانى « شوبنهور » ، ومن ناحية حرية الفكر بالكاتب العالمى المعاصر « برناردشو » .

أما المتنبى فقد تجلت فى شعره فكرة إنسانية خطيرة ، كان من شأنها أن تطورت وتبلورت من بعده فى مبدأ فلسفى هام عند الفيلسوف الألمانى نيتشه : ألا وهى فكرة « الاستعلاء » ؛ وقد جسمها «نيتشه» فى شخصية « الإنسان الأعلى » أو «السوبرمن» على حد تعبيره . وحسبنا من شعر المتنبى المفعم بهذه الفكرة قوله :

وإنى لمن قوم كأن نفوسهم ... بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وقوله :